مراجعات وعروض الكتب

التحرش الأخلاقي: العنف اليومي الفاسد

المؤلفة: ماري - فرانس هيريجويان

ترجمة: سهيل حمد أبو فخر

الناشر: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

مكان النشر: سورية، دمشق

سنة النشر: الطبعة الأولى ٢٠٠٦

عرض وتعليق: أ.د. محمد رفقي عيسى*

(*) دولة الكويت.

بين دفتي الكتاب

يقع الكتاب في ١٩٢ صفحة من القطع المتوسط، وجاء تقسيمه في مقدمة وثلاثة أبواب مردفة بخاتمة وببليوغرافيا. والكتاب الأصلي باللغة الفرنسية والنسخة المعروضة للمراجعة مترجمة إلى العربية.

حوت **المقدمة** استثارة للقراء فيما يخص الموضوع وتصحيح الدلالة للعنوان من خلال تخليصه من شوائب الاعتياد التي تكمن في الاختلاف الوظيفي للألفاظ من مثل «التحرش الأخلاقي»، «الفساد الأخلاقي»، «العنف اليومي»، «التدمير السيكولوجي»، «التطاول على المجال النفسي». ومع الإشارة إلى المهنة الإكلينيكية للكاتبة نجد تحولاً سلساً إلى مقام التوعية والتنوير من خلال التعرض لسياقات اجتماعية وأفلام سنيمائية شائعة تعطي للموضوع مقبولية بين غير المختصين.

في **الباب الأول** تناولت الكاتبة "العنف اليومي الفاسد" في فصلين؛ يتعامل أولهما مع العنف المعنوي الفاسد في الحياة الزواجية والأسرية، في حين يتناول الثاني العنف المعنوي الفاسد داخل المؤسسات المهنية؛ باعتبار أن الفرد يقضي غالب وقته وجل حياته بين المؤسستين: الأسرة والعمل. وفي تحليل بسيط فاعل أوضحت الكاتبة ما يجري في السياق الأسري من ممارسات قد تأخذ طابع التسلط أو التساهل، وتهدف إلى الوفاء أو إلى الإنكار. ومن خلال السرد القصصي، جاء تحليل «الحوار والسيناريو والمواقف والسلوكيات» في استدلالات على التحرش والعنف، ومن ثم بلوغ غاية الانفصال للخروج من دوامة ذلك العنف الفاسد، مباشراً كان أم غير مباشر؛ ظاهراً أم مضمراً. وتوضح الكاتبة من خلال ما أوردته من أمثلة الأبعاد التي تجعل الفساد مقروناً بالعنف لترفع حرج المقارنة بين فساد العنف وعنف الفساد، ويكفي مثلاً على ذلك ما أسمته «المحرّم الناعم» دليلاً على «العنف الفاسد»؛ وفي ذلك اقتران بين العنف المذكور والعدوانية المقصودة.

وفي الفصل الثاني أوردت تعريفاً توضيحياً لمفهوم التحرش في مكان

العمل والمستهدفين منه والممارسات التي يلجأ إليها «المعتدون» في عدوانيتهم و«المناورات» الفاسدة المفسدة، وما يتولد عنها من مشاعر الإحباط والخوف. وأخطر ما في الأمر أن تتعامى المؤسسة عن سلوكيات التحرش، ويزداد الأمر خطورة عند التواطؤ فيه وتشجيعه؛ خاصة عندما يكون الشخص متلهفاً للسلطة أو خائفاً ممن يعتبرهم خصومه.

في **الباب الثاني** المعنون «العلاقة الفاسدة وأبطالها» جاءت فصوله الخمسة أبعاد التشخيص النفسي المعتمد على الحالات السريرية والتحليل النوعي للاستجابات والوصول إلى البنيات العميقة من خلال إعادة صهر الأنساق اللغوية في سيمولوجيا تخترق الثقافات، وتفضح استراتيجيات "الفاسد" وردود فعل "الضحية" على امتداد ثلاثة فصول (الثالث والرابع والخامس). وفي رشاقة أدبية تنتقل الكاتبة في الفصلين السادس والسابع إلى تحليل شخصية المعتدي والضحية في إفادة عملية من نظريات الشخصية دون تكريس لإحداها؛ ولذا جاء التحليل في شكل تعريف بالسمة لا بالشخص - الحسد لا الحاسد، التطفل وليس المتطفل - بالنسبة للمعتدي وذلك لاعتمادها صفة المتلازمة. أما بالنسبة للضحية فحاولت رسم شخصيتها من خلال سماتها (وساوسها، حيويتها، شفافيتها).

ويتناول **الباب الثالث** «النتائج والعلاج»، وفي سهولة ويسر تدلف الكاتبة بالقارئ إلى تصورات إظهارية لما يكون عليه الضحية مبتدئة بنموذج شخصية في فيلم ثم وصف لغوي وتحليل إجرائي يغطي عوارض الإنهاك النفسي وما يترتب عليها من نتائج طويلة الأجل، ولم تنسَ أن تتحدث عن دور الطرفين «المعتدي والضحية» في تأجيج «التحرش الأخلاقي» أو «العنف الفاسد» وأمثلتها في كل من الأسرة والمؤسسة.

وبسبب التباين في الغرض والأسلوب؛ في النشأة والاتجاه بين الأسرة باعتبارها مؤسسة اجتماعية أساسها التسامح والتنازل وتقوم على الاختيار والتأبيد، وبين مؤسسة العمل التي تقوم على الندية وتحديد الأدوار واحتمالات

التغيير مكاناً ومكانة، أفردت الكاتبة الفصل العاشر للنصائح العملية في الحياة الزواجية والأسرية، والفصل الحادي عشر للنصائح العملية في المؤسسة. في حين يأتي العلاج النفسي في الفصل الثاني عشر. ومع أن الكاتبة وجهت حديثها إلى "الضحية" لاختيار المعالج النفسي خطوة أولى إلا أنها استطردت في حديث اختصاصي موجه للمعالج النفسي تعريفاً بأساليب العلاج والوقاية؛ منوهة أنه ليس هناك علاج سحري أو وصفة طبية محددة للتعامل مع كل الحالات. ومن هنا جاءت القدرة على الاختيار والتوليف معياراً لكفاءة الإثمار.

وتأتي **الخاتمة** في صفحتين تضفي جو العلاقة الإنسانية بين المؤلفة والقارئ، تخفف من قتامة الموقف، وترى فيما عرضته ضوءًا ينير السبيل للتعامل مع تلك «الظاهرة».

وتتميز الببليوغرافيا باتساع إطارها بين القديم والحديث.

التعليق

يشمل موضوع الكتاب «التحرش الأخلاقي» موقعاً هاماً في التعامل اليومي سواء على مستوى الأسرة أم مستوى الوظيفة، ومع الإحساس بوجوده وآثاره المدمرة فإن الدراسات الاختصاصية لم تتناوله بالقدر المكافئ حيث تدور غالبيتها نحو دراسة إدراك "الضحايا" لمستويات التحرش وتبعاته عليهم. وبذلك يسد هذا الكتاب - من خلال موضوعه - ثغرة في المكتبة الإنسانية بصفة عامة والمكتبة النفسية بصفة خاصة. أما من حيث منهجية الكتابة فيه فقد اتبعت الكاتبة المنهج النوعي القائم على تحليل محتوى الاستجابات اللفظية واستخلاص الدلالات النفسية لمضامين القول والسلوك وردود الأفعال من أطراف التعامل وهو ما يعتبر أسلوباً تشخيصياً متكاملاً يمكن للقارئ من خلال السير في دروبه التعرف على أهمية الكلمات، وكذلك الإشارات والحذر من تجريدها ويحفظها من زوال مدلولها على نحو يرفع عنها "الاعتباطية" في الصلة. وتتسم لغة التواصل بتلقائية الإصدار ولا إرادية التأليف في معظم

تراكيبها واختيار مفرداتها مما يؤكد احتفاظيتها بمفهوماتها الرمزية المتحجبة التي تحتاج إلى معين من الخبرة في مجالي اللغة وعلم النفس التحليلي لإصدار أحكام أو وصف حالات.

ويعرض الكتاب مادته بسلاسة وبصورة شيقة مع ذكر أمثلة تعتمد تحليل السيمياء اللغوية وأبعادها النفسية وبين لغة عربية سلسلة رصينة نقلت المعاني في يسر ووضوح تدل على تمكّن المترجم من اللغة والموضوع فحالفه التوفيق في تحديد الدلالات النفسية في البنى اللغوية العميقة.

ويكتسب الكتاب أهميته من قدرة الكاتبة التحليلية والشرحية والتأويلية سواء أكان ذلك للبنية الداخلية للفرد أم للبيئة المحيطة به، ويستطرد إلى مؤشرات الطاقة الاستيعابية والدفاعية والقدرات التوجيهية لاستثارة مواطن القوة وإمكانات تعديل المسار. ومن ميزاته أنه لا يركز على منحى أو أسلوب تشخيصي أو علاجي في ذاته لكيلا يتحول إلى دراسة تكون سنداً امبريقياً أو دعماً نظرياً لوجهة نظر ما، أو أسلوب علاج بذاته، وإنما تناول "المشكلة" أو الظاهرة ذاتها وأبعاد التعامل معها دون أن يختزل تلك الأبعاد في اتجاه مطروق، وفي الوقت ذاته لم يسع إلى تمييع الحدود لتضيع معها علامات الطريق؛ بل ساهم في إبراز النظرة الكلية والتكاملية في مواءمة لطبيعة القضية وخصوصية السياق وتنوع الأفراد والمواقف في حراك يتسم بالمرونة والجدوى. فمع طرح الكثير من التشابه بين السياق المؤسسي (العلاقات المهنية) والسياق الأسري (العلاقات الزواجية)، ومع اتفاق الآلية، نجد الالتقاء بين أساليب التدخل ذات نكهة خاصة ووجهة تتفق وطبيعة المواقف. ومع اختلاف الرؤية والرسالة بين كلتا المؤسستين تبرز أهمية القيم الحاكمة للتعامل واختيار المسار؛ فالعلاقة بين الزوجين تختلف عن العلاقة بين العاملين في المؤسسة المهنية بغض النظر عن مستوياتهم الوظيفية، فالأولى على عكس الثانية ميثاق غليظ تتخلله خيوط هادفة تخرجه من دائرة الأثرة والفردية إلى آفاق الإيثار والتآزر.

ويجد القارئ توحداً مع ما جاء في الكتاب وكأنه استرجاع لحوادث مر

بها أو مرت عليه، فيندمج في قراءة المرة الواحدة يقوده الأسلوب الشيق والمعايشة الحيّة. ويترك الكتاب له و/ أو لها حرية الانتقاء والمواءمة في المقاربة العلاجية أو الوقائية. كما تجب الإشارة بالتقدير للقائمين على التدقيق اللغوي والمتابعة الفنية والإخراج، وبنظرة انطباعية جديرة بالاعتبار يمثل الغلاف لوحة فنية دالة على محتواه.

إنه كتاب لكل من له أسرة ومن له عمل.